الكرسي الرسولي

قداسة البابا فرنسيس

المقابلة العامّة

تعليم

في القدّيس يوسف

الأربعاء 15 كانون الأوّل/ديسمبر 2021

قاعة بولس السادس

4. القدّيس يوسف رجل الصّمت

[Multimedia]

الإخوة والأخوات الأعزّاء، صباح الخير!

نُكمل مسيرتنا التأمليّة في القدّيس يوسف. بعد أن أوضّحت البيئة التي عاش فيها، ودوره في تاريخ الخلاص، وأنّه بارٌّ وخطيب مريم، أودّ اليوم أن أنظر في جانب آخر مهمّ من شخصيّته وهو: الصّمت. نحن بحاجة إلى الصّمت مرات كثيرة اليوم. الصّمت مهمّ. أثرّت في آية من سفر الحكمة، والتي قرأتها وأنا أفكّر في عيد الميلاد المجيد، وتقول: "عندما كان الليل في صمت هادئ، هناك نزلت كلمتك على الأرض". ظهر الله في أكثر لحظةِ صَمت. من المهم أن نفكّر في الصّمت في هذا العصر، الذي يبدو أنّ لا قيمة له كثيراً.

لم تُورد لنا الأناجيل أيّ كلمة على لسان يوسف النّاصري. لا شيء، لم يَتكلّم قط. وهذا لا يعني أنّه كان قليل الكلام، لا، بل هناك سبب أعمق. أكّد يوسف بصمته ما كتبه القدّيس أغسطينس، الذي قال فيه: "بقدر ما ينمو فينا الكلمة - الكلمة المتجسّد – تقِلّ فينا الكلمات"[1]. بقدر ما ينمو فينا يسوع، أي تنمو فينا حياتنا الرّوحيّة، تقلّ فينا الكلمات. هذا ما يمكننا أن نعرّفه على أنّه "ترداد الكلام"، أي التكلّم مثل الببّغاوات، باستمرار، لذلك يجب أن نقلّل كلامنا. ويوحنّا المعمدان نفسه، وهو "صَوتُ مُنادٍ في البَرّيّة: أَعِدُّوا طَريقَ الرّبّ" (متّى 3، 1)، قال في الكلمة: "لا بُدّ له مِن أن يَكبُر، وَلا بُدّ لي مِن أن أصغُر" (يوحنّا 3، 30). هذا يعني أنّ يسوع يجب أن يتكلّم وأنا يجب أن أبقى صامتًا. ودعانا يوسف بصمته إلى

صمْت يوسف ليس سكوتًا عن الكلام. إنّه صمْتٌ مليء بالإصغاء، وصمْتٌ فاعل، وصمْتٌ يُبيّن حياته الداخليّة العميقة. علّق القدّيس يوحنّا الصّليب وقال: "كلمة واحدة قالها الآب، وكان ابنه، وهذا الكلمة يتكلّم دائمًا في صمت أبدي، ويجب أن تصغي إليه النّفس في صمت"[2].

نشأ يسوع في هذه "المدرسة"، في بيت النّاصرة، مع مثاله اليوميّ، مريم ويوسف. ولا يدهشنا أنّه هو نفسه بحث عن أماكن صمت في أيّامه (راجع متّى 14، 23) ودعا تلاميذه إلى أن يعيشوا هذه الخبرة، إذ قال لهم على سبيل المثال: "تَعالَوا أنتم إلى مَكانٍ قَفرٍ تَعتَزلونَ فيه، وٱستَريحوا قَليلاً" (مرقس 6، 31).

كم هو جميل لو أنّ كلّ واحدٍ منّا، على مثال القدّيس يوسف، استطاع أن يستعيد هذا البعد التأمّلي في الحياة، والذي يفتح الصّمت بالتحديد بابه على مصراعيه. ولكنّنا جميعًا نَعلم، وعن خبرة، أنّه ليس بالأمر السّهل: فالصّمت يخيفنا قليلاً، لأنّه يطلب منّا أن ندخل إلى داخل أنفسنا وأن نلتقي بالجزء الأكثر صدقًا فينا. وكثير من الناس يخافون من الصّمت، ويريدون أن يتكلّموا، ويتكلّموا، ويتكلّموا، أو أن يستمعوا إلى الارسال الإذاعي (الرّاديو) والتّلفاز... ولكنّهم لا يقبلون الصمت، لأنّهم يخافون منه. لَاحَظَ الفيلسوف باسكال أنّ "كلّ تعاسة البشر مردّها إلى أمر واحد هو أنّهم لا يعرفون أن يبقوا هادئين في غرفة"[3].

أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء، لنتعلّم من القدّيس يوسف أن ننمّي أماكن للصّمت، فيها يمكن أن تَظهر كلمة أخرى، أي يسوع، الكلمة، وهي: كلمة الرّوح القدس الذي يسكن فينا ويحمل يسوع. ليس سهلاً أن نتعرّف على هذا الصوت، الذي غالبًا ما نخلط بينه وبين آلاف الأصوات من الهموم، والتّجارب، والرّغبات، والآمال التي في داخلنا. لكن، من دون هذا التدريب الذي يأتي بالتّحديد من ممارسة الصّمت، حتّى كلامنا يمكن أن يصبح مرضًا. من دون التدريب من ممارسة الصّمت، يمكن أن يصبح كلامنا مرضًا. وبدلاً من أن يجعل الحقيقة تتألّق، يمكنه أن يصبح سلاحًا خطيرًا. في الواقع، يمكن أن تصبح كلماتنا تملّقًا، ومجدًا باطلًا، وكذبًا، ونميمةً، وافتراء. هذا واقع نعيشه، كما يذكّرنا سفر يشوع بن سيراخ، القائل: "كَثيرونَ سَقَطوا بِحَدِّ السَّيف، لكِنَّهم لَيسوا كالسَّاقِطينَ بِحَدِّ اللِّسان" (28، 18). وقالها يسوع بوضوح: من تكلّم بالسّوء عن أخيه وأخته، ومن افترى على قريبه، فهو قاتل (راجع متّى 5، 21-22). فهو يقتل بلسانه. نحن لا نصدّق هذا ولكنّها الحقيقة. لنفكّر قليلاً في المرات التي قتلنا فيها بلساننا، سنشعر بالخجل! ولكن هذا الخجل سيفيدنا كثيرًا، كثيرًا.

أكّدت حكمة الكتاب المقدّس أنّ "المَوتُ والحَياةُ في يَدِ اللِّسان، والّذينَ يُحِبُّونَه يَأكُلونَ ثِمارَه" (أمثال 18، 21). ووسّع الرّسول يعقوب في رسالته هذا الموضوع القديم لقوّة الكلمة، الإيجابيّة والسّلبيّة، بأمثلة بديعة، قال ما يلي: "وإذا كانَ أَحَدٌ لا يَزِلُّ في كَلامِه، فهو إِنْسانٌ كامِل قادِرٌ على إِلجامِ جَميعِ جَسَدِه. [...] وهكذا اللِّسان، فإِنّه عُضوٌ صَغير ومِن شَأنِه أَن يُفاخِرَ بِالأَشياءِ العَظيمَة. [...] بِه نُبارِكُ الرَّبَّ الآب وبِه نَلعَنُ النّاسَ المَخلوقينَ على صُورَةِ الله. مِن فَمٍ واحِدٍ تَخرُجُ البَرَكَةُ واللَّعنَة" (3، 2-10).

لهذا السّبب يجب أن نتعلّم من يوسف أن ننمّي الصّمت: أي ذلك المكان الدّاخلي في أيّامنا الذي فيه نسمح للرّوح القدس بأن يجدّدنا، ويعزّينا، ويصحّحنا. لا أقول أن نقع في السّكوت عن الكلام، لا، بل أن ننمّي الصّمت. لينظر كلّ واحدٍ إلى داخله: كثيرًا من المرات نقوم بعمل ما وعندما ننتهي منه، نبحث سريعًا عن الهاتف المحمول لنفعل أمرًا آخر، نحن هكذا دائمًا. وهذا لا يساعدنا، بل يجعلنا ننزلق في الأمور السّطحيّة. ينمو عمق القلب بالصّمت، وهو ليس سكوتًا عن الكلام، كما قلت، بل يترك الصمت مكانًا للحكمة، وللتّفكير، وللرّوح القدس. نحن نخاف أحيانًا من لحظات الصّمت، ولكن يجب ألاّ نخاف! لأنّ الصّمت سيفيدنا كثيرًا. وفائدة القلب التي سنحصل عليها، ستشفي لساننا وكلماتنا، وقبل كلّ شيء اختياراتنا. في الواقع، جمع يوسف بين العمل والصّمت. لم يتكلّم، ولكنّه عَمِلَ، وهكذا، أظهر لنا ما قاله يسوع يومًا لتلاميذه: "لَيسَ مَن يقولُ لي: «يا ربّ، يا رَبّ» يَدخُلُ مَلكوت السَّمَوات، بل مَن يَعمَلُ بِمَشيئَةِ أَبي الّذي في السَّمَوات" (متّى 7، 21). يجب أن نقول كلمات مثمرة عندما نتكلم، إذ نحن نتذكّر تلك الأغنية "كلمات، كلمات، كلمات..." ولكن في الجوهر لا شيء. الصّمت، وأن نتكلّم بشكل صحيح، وأحيانًا أن نُلْجِمَ قليلاً لِسَاننا، فهذا يفيدنا، بدل أن نقول كلامًا فارغًا.

وننهي بصلاة.

أيّها القدّيس يوسف، أنت رجل الصّمت،

أنت الذي لم تنطق بأيّ كلمة في الإنجيل،

علّمنا أن نصوم عن الكلمات الفارغة،

وأن نكتشف من جديد قيمة الكلمات التي تبني، وتشجّع،

وتعزّي وتدعم.

كُن قريبًا من الذين يعانون بسبب الكلمات الجارحة،

مثل الافتراء والنّميمة،

وساعدنا أن نضيف دائمًا الأعمال إلى الكلمات. آمين.

****

قِراءَةٌ مِن رسالَةِ القِدّيس يَعقُوبَ الرّسول (3، 2. 5. 10)

يا إخوة، [...] إذا كانَ أحَدٌ لا يَزلّ في كَلامِه، فهو إنْسانٌ كامِل قادِرٌ على إلجامِ جَميعِ جَسَدِه. [...] وهكذا اللّسان، فإنّه عُضوٌ صَغير ومِن شَأنِه أن يُفاخِرَ بِالأشياءِ العَظيمَة. أُنظُروا ما أصغَرَ النّارَ الّتي تُحرقُ غابَةً كَبيرة! [...] مِن فَمٍ واحِدٍ تَخرُجُ البَرَكَةُ واللّعنَة. فيَجِبُ يا إخوَتي ألاّ يَكونَ الأَمْرُ كذلِك.

كلامُ الرّبّ

****

Speaker:

تَكَلّمَ قَداسَةُ البابا اليَوْمَ علَى القِدّيس يُوسُف رَجُل الصّمت، وَقَال: لَمْ تُورد لَنَا الأَنَاجِيلُ أيٌّ كَلِمَةٍ قِيلَت عَلى لِسَانِ يُوسُف النّاصِري، وَهَذا لَا يَعنِي أنّهُ كَانَ قَلِيلَ الكَلَام، لا، بَلْ كان السّبَبُ أعمَقَ من ذلك. أكّدَ يُوسُف بِصَمتِهِ مَا قَالَهُ القِدّيسُ أغُسطِينُس وَهُوَ: "يقَدر ما يَنمُو فينا الكَلِمَةُ المُتَجَسّدَ تقِلّ فينا الكلمات". وهَكَذا، دَعَانَا يُوسُف بِصَمتِهِ إلَى أن نَترُكَ مَكانًا لِحُضُور الكَلِمَةِ المُتَجَسّد، أي يَسُوعَ المَسِيح. وأضَافَ قَداستُهُ: صَمْتُ يُوسُف لَيسَ سُكُوتًا عَن الكَلَام، بل إنّهُ صَمتٌ مَلِيءٌ بِالإصغَاءِ، وَصَمتٌ فاعِل، وَصَمتٌ يُبيّن حياتَهُ الداخليّةَ العميقة. وَفِي هَذِهِ الأجوَاءِ نَشَأَ يَسُوع، مُتَعَلّمًا مِن مَريَم ويُوسُف، وَهُوَ نَفسُهُ بَحَثَ عَن أماكن صَمتٍ فِي أيّامِهِ. وَدَعَا الأَبُ الأَقدَس أن نَتَعَلّمَ مِن القِدّيس يُوسُف بأن نُنَمّي فِينَا أماكن الصّمت، التِي فِيهَا يُمكِنُ أن تَظهَرَ كَلِمَةٌ أُخرَى وَهِيَ: كَلِمَةُ الرّوحُ القُدُس الذي يَسكُنُ فِينَا. لكنّا كثيرًا مَا نَخلِطُ بَينَهُ وبَينَ آلَافِ الأَصوَاتِ الأخرى مِنَ الهُمُومِ، والتّجَارِب، والرّغَبَاتِ، والآمَالِ التِي فِي دَاخِلِنَا. فنحنُ بحاجةٍ إلى لَحَظاتِ صَمت، حتى يَبقَى كلامُنا سليمًا ولا يصيرَ مرَضًا وسببَ إساءة. لنَتَعَلّمْ مِن يُوسُف أن نُنَمّي الصّمت فينا: فنَسمعَ الرّوحَ القُدُس

****

Santo Padre:

Saluto i fedeli di lingua araba. Chiediamo a San Giuseppe, uomo del silenzio, che nel Vangelo non ha pronunciato nessuna parola, di insegnarci a digiunare dalle parole vane, e a riscoprire il valore delle parole che edificano, incoraggiano, consolano e sostengono. Il Signore vi benedica tutti e vi protegga sempre da ogni male!

****

Speaker:

أُحَيّي المُؤْمِنِينَ الناطِقِينَ باللُّغَةِ العَرَبِيّة. لِنَسْأَلِ القِدِّيسَ يُوسُف رَجُلَ الصّمت، الذِي لَم يَنطِق بِأيّ كَلِمَةٍ فِي الإنجِيل، أنْ يُعَلِّمَنَا أن نَصُومَ عَنِ الكَلِمَاتِ الفَارِغَة، وأن نَكتَشِفَ مِن جَدِيد قِيمَةَ الكَلِمَاتِ التِي تَبنِي، وَتُشَجِّع، وَتُعَزّي وَتَدعَم. بارَكَكُم الرّبُّ جَميعًا وَحَماكُم دائِمًا مِنْ كُلّ شَرّ!

****

© جميع الحقوق محفوظة – حاضرة الفاتيكان 2021

[1] القدّيس أغسطينس، *خطاب* 288، 5؛ *المؤلفات اللاتينية لأباء الكنيسة* 38، 1307.

[2] *Dichos de luz y amor*, BAC, Madrid, 417, n. 99.

[3] بليز باسكال، *خواطر*، 139.

Copyright © Dicastero per la Comunicazione - Libreria Editrice Vaticana